

الفصل الأول
تاريخ قبيلة هذيل (التعريف بقبيلة هزيل)

المبحث الأول : نسب هزيل

المبحث الثاني : ديار هزيل وأيامها

المبحث الثالث : الحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية

المبحث الأول: نسب هذيل:

تجمع المصادر على أن هذيل قبيلة شمالية حجازية تنتهي بنسبها إلى معد بن عدنان⁽¹⁾، فجدهم هو هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر⁽²⁾،⁽³⁾ وإلى عدنان انقطع علم الأنساب لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا ينتهي في النسب إلى معد بن عدنان أمسك ثم قال: (كذب النسابون)⁽⁴⁾.

ويروي أن جدهم مدركة بن إلياس ولد له خزيمة وهذيل، وأمهما سلمى بنت أسد بن ربيعة بن نزار⁽⁵⁾.

ويذكر الإخباريون أن إلياس بن مضر هو أول من أهدى البدن إلى البيت، وهو أول من وضع حجر الركن للناس بعد غرق البيت وانهدامه زمن نوح⁽⁶⁾.

أما خزيمة بن مدركة، فهو الذي نصب هبل على الكعبة فكان يقال "هبل خزيمة"⁽⁷⁾. ومن المعروف أن هبل هذا من أشهر أصنام الكعبة، وكان على هيئة إنسان مقطوعة يده اليمنى وقد صنعت له يد من ذهب⁽⁸⁾. وأما جسمه فقد صنع من العقيق الأحمر⁽⁹⁾.

(1) جمهرة أنساب العرب، ابن حزم، ط3، بيروت، لبنان، دار المكتبة العلمية، 2003م، ط3، ج1، ص 11.

(2) مضر: مضر بن نزار، من العدنانية، كانت ديارهم حيز الحرم إلى السرزات (معجم قبائل العرب، 117/3م).

(3) شعر الهذليين، دكتور أحمد كمال زكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1389هـ - 1969م، القاهرة، بدون طبعة، ص 2-5.

(4) نهاية الإرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، طبعة دار الكتب، القاهرة، ج6، ص 16.

(5) جمهرة أنساب العرب، ابن حزم، ج1، ص 9.

(6) نهاية الإرب، النويري، 16:16.

(7) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار صادر، بيروت، ط1، 1979م، ص 2.

(8) جمهرة أنساب العرب، ابن حزم، ط3، ص 11.

(9) سبائك الذهب، السويدي، تحقيق محمد أمين، مطبعة دار الصناعة، بغداد، 128، بدون طبعة، ص 1-3.

ولهذيل بن مدركة بطنان (لحيان)، و (سعد) . وسعد هو جد أبي كبير الهذلي الشاعر المعروف⁽¹⁾، كما أنه جد الصحابي المشهور عبد الله بن مسعود على رواية السويدي، إذا يورد نسب عبد الله بن مسعود. (*،⁽²⁾).

ومن تسلسل قبيلة هذيل نرى أنها قريبة في النسب من قبيلة قريش، فهذيل بن مدركة هو أخ لخزيمة بن مدركة جد القرشيين.

أشار ابن خلدون^(*)، في صحة النسب فقال: "إن الصريح من النسب إنما يوجد في متوحشي الفقر، وذلك لما اختصوا به من نكد العيش، وشظف الأحوال، وسوء الموطن، فلا ينزع إليهم أحد من الأمم يأنس بهم، ويعيش معهم، ويؤمن عليهم. لأجل ذلك من اختلاط أنسابهم وفسادها، ولا تزال بينهم محفوظة صريحة، واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبنو اسد وهذيل، ومن جاورهم من خزاعة لما كانوا من أهل شظف ومواطن غير ذلك زرع وضرع، وبعثوا عن أرياف الشام والعراق، ومعادن الأدم والحبوب، وكيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاف ولا عرف".

فنسب هذيل إذن صريح من هذه الناحية، فهي كانت متبديّة، ولم تتح لها الفرصة لتختلط بأحد في هجرة، أو يختلط بها أحد أراد أن يأنس إليها.

وأما الشيء الثاني، فهو أن هذيلاً كانت عشائر متفرقة في أرجاء الحجاز، ولم يكن يجمعها صعيد واحد، وشيء مثل هذا خليق أن يحفز كل هذلي إلى حفظ نسبه والتعلق بأصله احتفاظاً برابطة القرى، وتمسكاً بالعصبية القبلية، ودفعاً لعدوان المنافس، وتحديدًا لموقف الغريب أو الجار أو الحليف منها.

(1) جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الأندلسي، ج1، ص 197.
(* عبد الله بن مسعود بن غافل بن شمش بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل ابن سعد بن هذيل.
(2) سبائك الذهب، السويدي، ط1، 1986م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 23.
(* ابن خلدون: هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحيم الحضرمي الاشيلي الأصل التونسي، القاهري، المالكي، المعروف بابن خلدون، عالم وأديب، ومؤرخ اجتماعي ولد عام 732هـ من مؤلفاته: الصبر، ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ورحلة ابن خلدون وغيرها، توفي بالقاهرة 808هـ (معجم المؤلفين، 119/2).

فهزيل في سلسلة النسب الغالبة : هذيل بن مدركة بن الياس⁽¹⁾، والياس هو ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان⁽²⁾، ويقال إن عدنان أحد أعقاب قيدار ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام⁽³⁾. أبناء قيدار هذا يؤلفون جماعة العرب التي أهلكتها باختصر^(*) (4).

يتكلم النويري^(*) كلاماً واضحاً في عمود النسب، فيقول: (ومن مدركة غير عمود النسب. بنو هذيل بني مدركة)⁽⁵⁾. جاعلاً بذلك هذه القبيلة في المدينة الثانية بعد خزيمة، ويمضي النويري فيقول: "ومن هذيل بطنان لصلبه : بنو لحيان وسعد. ومن قبائل سعد بن هذيل بنو خناعة بن سعد، وبنو صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل".

والى ذلك ذهب ابن خلدون والمسعودي^(*)، أما ابن عبد ربه فيقول: "منهم لحيان بن هزيل بطن. وخناعة بن سعد هذيل بطن، وصاهلة بني كاهل بن الحرث بن سعد بن هذيل بطن، وحريث بن سعد بن هذيل بطن، وكاهل بن سعد بن هذيل بطن، وصبح، وهو ابن كاهل بطن وكعب بن كاهل بطن"⁽⁶⁾. فهو يتجاوز معداً إلى أولاده، فيحدد خناعة وكاهلاً وغيرهما، بينما يقف عند لحيان ولا يورد أحداً من أولاده.

-
- (1) نسب عدنان وقحطان، لجنة التأليف والترجمة، سنة 1936م، ص 6.
 - (2) جمهرة أنساب العرب، لأبي محمد بن سعيد الأندلسي، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، 382هـ - 1962م، ص 9- 11.
 - (3) نهاية الإرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، ص 339/2.
 - (*) باختصر : كان حاكم بلاد بابل، من قبل ملك الفرس، وهي تعني مركب مزجي كحضر موت وبعليك وتركيبه من (بخت) : معرف بوخت، بمعنى ابن ، ونصر اسم صنم، (اعجام الاعلام، لمحمود مصطفى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1403هـ - 1983م، ص 72.
 - (4) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، مطبعة التقدم، 1284م، بدون طبعة، 239/2.
 - (*) النويري : هو محمد بن محمد، أبو القاسم محي الدين النويري، فقيه مالكي، عالم بالقراءات، من تصانيفه : شرح المقدمات الكافية في النحو والصرف والعروض والقافية، شرح طيبة النشر في القراءات العشر، وغيرها، الاعلام 148/7.
 - (5) نهاية الإرب، نسخة محفوظة بدار الكتب، تحت رقم (105)، 364/2.
 - (*) المسعودي : علي بن الحسين بن علي المسعودي أبو الحسن، مؤرخ إخباري، صاحب فنون، من تصانيفه: مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الاشراف والملوك، والتاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم، وغيرها، توفي 345هـ (معجم المؤلفين، 433/2).
 - (6) العقد الفريد، لشهاب الدين أحمد بن عبد ربه، المطبعة العامرية الشرقية، 1316هـ ، ص 57/2.

ويقول السويدي⁽¹⁾: (إن هذيلاً بطن من حندق في مضر، وكان له من الولد : سعد وخباب بطن، وعميدة وصرمة بطن)⁽²⁾.

واستناداً إلى ما يقول يصمد سعد إلى عميرة فهذيل، وهذا يخالف أقوال النسائيين. والوجيه أنه يروي في موضع أقران كاهلاً وعمراً ابناً للحارث بن تميم بن سعد بن هذيل⁽³⁾. مع أنه سيف، وجعل تميماً ابناً لسعد بن هذيل⁽⁴⁾.

أما ابن حزم، فيجعل لهذيل سعداً ولحيان. ويعد من أبناء لحيان طابخة ودايعة، فيتفق في ذلك مع السويدي⁽⁵⁾.

ويقول أنهما كانا لهما عدد وكان من ولد دابغة المحيق الهذلي، واسمه صخر بن عبيد بن الحارث وابناه سليمة وسانان.

أما طابخة فكان له أسامة بن عمير، وكان فقيهاً شريفاً في قومه⁽⁶⁾.

ويروي ابن حزم عنه أنه كانت له صحبة، وابنه أبو المليح المحدث، وأول شعراء هذيل، وهو أبو قلابة من طابخة وكان سيد لحيان، وعم المتنخل الشاعر الهذلي الكبير⁽⁷⁾، فكان لطابخة أيضاً الحارث بن صعصعة⁽⁸⁾.

ويرى السويدي: (كان للحارث كاهل ويصعد إليه الصحابي الكبير عبد الله بن مسعود).

أما ابن حزم، فيروي نسبه هكذا : عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمش بن خار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل⁽⁹⁾.

(1) السويدي: محمد أمين بن علي بن محمد بن عبد الله السويدي، أبو الفوز، نسابة متكلم مشارك في علوم، ولد ببغداد سنة 1200هـ من تصانيفه سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، توفي سنة 1246هـ (معجم المؤلفين، 144/3).

(2) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، السويدي، تحقيق محمد أمين، مطبعة دار الصناعة، بغداد 1280هـ، بيروت، بدون طبعة، ص 22.

(3) المرجع السابق، ص 21.

(4) المرجع السابق، ص 22.

(5) جمهرة أنساب العرب، الأندلسي، ص 185، والسبائك، ص 12.

(6) الجمهرة، ص 21.

(7) المتنخل : ستأتي ترجمته في المبحث السادس من الفصل الثاني.

(8) الجمهرة، ص 185.

(9) سبائك الذهب، السويدي، ص 21.

وتكلم بعد ذلك في شيء من الإيجاز عن صبيح بن كاهل وذكر أنهم كانوا عشائر نزلوا حوالي مكة، فكان لهم بها عدد وعدة ومتعة، وكان منهم أبوبكر الهذلي⁽¹⁾، الفقيه⁽²⁾.

ويضيف المسعودي: إن الرياسة كانت فيهم⁽³⁾، والسويدي يقول: إنه وصاهلة كانا أخوين، وأبوهما كاهل⁽⁴⁾.

ويقول أحد الباحثين: (ومن تسلسل قبيلة هذيل نرى أنها قريبة في النسب من قبيلة قريش، فهذيل بن مدركة وهو أخ لخزيمة بني مدركة جد القرشيين، وهذيل قبيلة كبيرة استوطنت شمال الحجاز، وبرز فيها عدد كبير من الشعراء، بل إنها القبيلة الوحيدة التي وصلتنا أشعارها مجتمعة في ديوان واحد وهو ديوان الهذليين)⁽⁵⁾.

مما سبق تتضح جملة من الأمور فهذيل من ولد عدنان باتفاق الأئمة في هذا الشأن، وهم كذلك متفقون على أن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ولكنهم لا يتفقون على كثير من الأسماء الواردة بينهما وربما وقع التصحيف فيما اتفقوا على ذكره، وأما ذكر البخاري ما بين عدنان وإسماعيل وتركه في موضع آخر فربما وجدنا له تفسيراً إذا نظرنا إلى ما استدركه عليه النيسابوري وعلى الإمام مسلم حيث يقول: "عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول معد بن عدنان بن أدد بن زيد بن البراء بن اعراق الثرى.. قالت أم سلمة واعراق الثرى إسماعيل بن إبراهيم وزند هميسع وبراء بنت. هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"⁽⁶⁾ (7).

(1) أبوبكر الهذلي: لم أقف له على ترجمة.

(2) الجمهرة، ص 186.

(3) مروج الذهب، المسعودي، المطبعة البهية، 1346هـ، ص 155/2.

(4) سبائك الذهب، السويدي، ص 21.

(5) أبو ذؤيب الهذلي، حياته وشعره، نورة الشمالان، شركة الطباعة العربية السعودية، الطبعة الأولى،

1400هـ - 1980م، الرياض، رسالة ماجستير منشورة، ص 4.

(6) أي البخاري ومسلم.

(7) الطبقات الكبرى، ابن سعد، ط1، تحقيق محمد عبد المعيد خان، بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي،

1396هـ، ص 56.

كذلك مما اجتمعوا عليه أن هزبلاً وقريشاً تجتمع في مدركة بن الياس بن مضر لا يشذ واحد منهم عن هذا الاجتماع، ولعل من الشوارد في الحديث عن هذيل ما ذكره القيسراني من أن الهزلي اثنان: هذيل خندف وهذيل خزاعة⁽¹⁾، وهذا قول لم أجده إلا عنده.

أما ما ذكره السمعاني من أن هزبلاً تفرقت في البلاد، فهذا مما يشير إلى كثرة تصاورها مع غيرها، بالضرورة بالأبواء والأمهات في البلاد التي انتجعت⁽²⁾.
وقياساً على الأمثلة المذكورة آنفاً فقد كانت للأمهات شأن عظيم فيها يتصل بأنساب العرب عامة وهذيل داخلة في هذا الحكم، فخندف مثلاً زوج الياس بن مضر هي أم بطون عدة من بينها هذيل وقريش⁽³⁾، حتى أنه ليقال لبني الياس بن مضر جميعاً خندف ويضاف إلى هذا أن أبناء فهد بن مالك الأربعة أمهم هي ليلى بنت سعد بن هذيل بن مدركة ابن هشام⁽⁴⁾، وعند الشيباني هي ليلى ابنة الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة⁽⁵⁾، بل أن خزيمة وهذيل من أم واحدة هي سلمى بنت أسد بن ربيعة بن نزار.

ويذكر في هذا الباب أن من العواتك اللائي ولدنه صلى الله عليه وسلم امرأة من هذيل هي عاتكة بنت سعد بن سيل ومن جداته صلى الله عليه وسلم لأمه كذلك نساء من هذيل اثنتان من بني لحيان وواحدة من بني سعد وهن قلابة بنت الحارث وأميمة بنت مالك ودب بنت غنم.

نخلص من كل ذلك إلى أن هزبلاً متصلة النسب بكثير من قبائل العرب إلا أن نسبها مع قريش أوثق عرى وأمتن لحمه من جهة الآباء والأمهات جميعاً ولعل جوار هذيل لقريش في بلاد الحجاز عامة ومكة خاصة سبب من أسباب تقوى تلك الأواصر، ويدل على ذلك الجوار قول الحموي: (والغالب على مكة مما يلي المشرق

(1) المؤلف والمختلف، القيسراني، ط1، تحقيق كمال وسق الحوت، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، (1411هـ)، ج1.

(2) الأنساب، السمعاني، ط1، تحقيق عبد الله عمر الياوردي، بيروت، لبنان: دار الفكر، 1998م.

(3) نهاية الإرب في فنون الأدب، النويري، ج2، ص297.

(4) مغني اللبيب، ابن هشام، تحقيق مازن المبارك ومحمد على حمد الله، ط6، بيروت، لبنان: دار الفكر 1985م، ج1، ص221.

(5) الكامل في التاريخ، الشيباني، تحقيق عمر عبد السلام، بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي، 1997م، ج1، ص567.

بنو هلال وبنو سعد في قبائل من هذيل..⁽¹⁾. بل يؤكد ذلك ما ذكره ابن هشام وكان فيما زعم بعض أهل العلم قد ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة حيث بعث إليه حنافة بن يعمر بن نفاثة بن عتي بن الدئل بن بكر بن مناة بن كنانة وهو يومئذ سيد بني بكر، وخويلد بن وائلة الهذلي وهو يومئذ سيد هذيل فعرضوا على أبرهة ثلاث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى. وسواء أكان ذلك العرض أم لا فالشاهد في الخبر الذي أورده ابن هشام أن هذيلاً بلادها الحجاز عامة ومكة بصفة خاصة وهي فيها قبيلة ذات مكانة وثروة ونفوذ.

(1) نزعة المشتاق في اختراق الآفاق، الحموي، ط1، 1989م، بيروت، لبنان، ج1، ص 145.

المبحث الثاني: ديار هذيل وأيامها:

منازل هذيل:

توزعت قبيلة هذيل في العصر الجاهلي على جبال الحجاز الفاصلة بين تهامة ونجد، ويقال لأعلاها السراة، كما يقال لظهر الدابة السراة، وسراة الفرس أعلى منته (1).

وسراة هذيل متصلة بجبل غزوان المتصل بالطائف، ويذكر ابن خلدون إن لهذيل أماكن مياه أسفل الطائف من جهة نجد، وتهامة بين مكة والمدينة، وأن هذيلاً قد تركت أماكنها وتوزعت على الممالك الإسلامية بعد الفتح الإسلامي لتلك الممالك. ولكثرة من هاجر منها لم يبق في الحجاز حي بطرف هذيل (2).

أما المناطق التي سكنتها هذيل فأهمها: عرنة وعرفة ووطن نعمان ونخلة ورحيل وكبكب والبوابة وأوطاس وغزوان (3).

أما عرنة، فهو واد بحزاء عرفات (4) وأما عرفة أو عرفات فهي موقف الحجيج المعروف (5)، ونعمان بالفتح ثم السكون هو واد بين مكة والطائف تسكنه قبيلة هذيل، وهو على مسافة ليلتين من عرفات.

قال ياقوت الحموي: "إن نعمان واد يسكنه بنو عمرو بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل، بينه وبين مكة نصف ليلة، به جبل يقال له المدراء، وبنعمان من بلاد هذيل وجبالها وهي صدور الوادي التي يجئ منها العسل إلى مكة". وقول بعض الأعراب دليل على أنه واد وهو:

أَلَا أَيُّهُمُ الدَّرَكِبُ لَيَمَانُونَ عَرَجُوا

عَنَا فَدَّ أَضْحَى هَوَانَا يِمَانِيَا

(1) معجم البلدان، ياقوت الحموي، ط2، بيروت، دار الفكر، د.ت، ج3، ص 205.

(2) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، مطبعة التقدم، 1284هـ، د.ت، ج2، ص 219.

(3) صفة جزيرة العرب، الهمزاني، تحقيق محمد بن هلي الأكوخ الحوالي، ط 1977م، ص

323.

(4) معجم البلدان، الحموي، ج1، ص 111.

(5) المرجع السابق، ص 111.

نَائِلُكُمْ هَلْ سَأَلَ نَعْمَانَ بَعْدَنَا
وَحُبَّ بِنَا بَطْنُ نَعْمَانَ وَادِيَا
عَهْدْنَا بِهِ صَا كَثِيرًا وَمَتْرَبًا
.ه نَمُ الْقَلْبِ الَّذِي كَانَ صَادِيَا⁽¹⁾

أما نخلة، فقد ذكر صاحب صحيح الأخبار أنها نخلتان، نخلة اليمانية، ونخلة الشامية، تجتمع سيولهما في بستان ابن عامر أي موقع عين الجديدة، وإذا اجتمعا سلكا وادي هو المسمى اليوم وادي فاطمة⁽²⁾.

أما رحيل، فلم يذكره ياقوت، ولكنه أورد الرحيل وذكر بأنه منزل بين البصرة والنياج⁽³⁾. والبصرة كما هو معروف، هي بلدة في جنوب العراق، أما النياج فهو بين البصرة واليمامة، بينه وبين اليمامة مسيرة أربعة أيام⁽⁴⁾.

أما كبكب، فهو جبل خلف عرفات، وقيل هو الجبل الأحمر الذي يجعله الحاج في ظهره إذا وقف بعرفة. ذكر صاحب معجم البلدان أن الأصمعي قال: "لهذيل جبل يقال له كبكب وهو مشرف على موقف عرفة".

قال ساعدة بن جؤية الهذلي⁽⁵⁾:

(6) كَيْدًا وَجَمًّا بِأَنَاسٍ كَانَتْهُمْ أَفْنَادُ كَبْكَبَاتِ الشَّتِّ وَالْحَزْمِ

وغزوان هو الجبل الذي على ظهره مدينة الطائف⁽⁷⁾، أما البؤياة فهي صحراء بأرض تهامة⁽⁸⁾. وذكر صاحب المعجم أن أوطاس وإد في ديار هوازن⁽⁹⁾، حدثت في معركة حنين⁽¹⁰⁾.

(1) معجم البلدان الحموي، ج 5 ص 293.

(2) صحيح الأخبار، ابن بليهد، ط2، 1972م، ج1، ص 35.

(3) معجم البلدان، الحموي، ج3، ص 37..

(4) المعجم السابق، ج2، ص 255.

(5) ساعدة بن جؤية، أخو بني كعب بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة.

(6) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج3، ص 1131.

(7) معجم البلدان، الحموي، ج4، ص 202.

(8) المعجم السابق، ج1، ص 562..

(9) هوازن : هوازن بن منصور، بطن من قيس بن عجلان من العدنانية هم بنو هوازن بن منصور كانوا يقطنون نجد (معجم القبائل 3 / 123).

(10) معجم البلدان، الحموي، ج1، ص 281.

ويذكر ابن خلكان أن أكثر منازل هذيل وديارها تقبع في وادي نخلة المجاور لمكة⁽¹⁾.

ولو ألقينا نظرة على ديوان الهذليين لصادفتنا أسماء أماكن كثيرة تقع في تلك المناطق، ولا بد أن الهذليين قد سكنوها أو مروا بها وألفوها. فقد ورد ذكر الجحون والسرر، وهما موضعان قرب مكة. إذ قال أبو ذؤيب الهذلي^(*):

بَايَةَ مَا وَقَفَتْ وَالرَّكَا بٌ بَيْنَ الْحُجُونِ وَبَيْنَ السَّرَرِ⁽²⁾

لقد حدد ياقوت منطقة الجحون بأنها جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها، كما حدد السرر بأنها وادٍ على أربعة أميال من مكة، كما ورد ذكر المسد وهو موضع قرب مكة عند بستان ابن عامر، ورد كذلك ذكر قيسرون وبلقع وسلاب والمحصب ونخب. أما بلقع، فلم أجد لها إشارة تبين موضعها، أما قيسرون فقد ذكر ياقوت ما يلي: "وقيسرون في شعر هذيل ولا أدري كيف أمره" ثم أبياتاً تحوي اللفظة لشاعر هذلي⁽³⁾. أما المحصب، فقد ذكر ياقوت بأنه موضع بين مكة ومنى وحده من الجحون إلى منى⁽⁴⁾.

أما سلاب فلم يحددها ياقوت وإنما اكتفى بالقول: "سلاب موضع في قول حبيب الهذلي"⁽⁵⁾.

وهكذا نجد تلك القبيلة تتخذ من منطقة الحجاز ميداناً لها مستفيدة من جبالها المنيعه، ومتخذة إياها حصوناً تحميها من غارات القبائل الأخرى، ووجدت في عسل تلك المناطق ثروة تحسد عليها، ومطمعاً لغزاتها من الأفراد المغيرين. إذا كانت منطقة الحجاز تحوي مدناً ثلاثة مهمة في ذلك الوقت، فيحسن المرور عليها مع التأكد على أن هذيلاً لم تسكن المدن، وإنما كانت تعتمد بالجبال،

(1) وفيات الأعيان وأنبياء أبناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، ط4، بيروت، 2005م. (*) هو خويلد بن خالد بن محرث، ابن زبيد بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل، طبقات الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، شرحه محمد محمود شاكر، دار المدني جدة. ص

(2) معجم البلدان، الحموي، ج4، ص 422.

(3) المعجم السابق، ج5، ص 62.

(4) المعجم السابق، ج3، ص 232.

والدليل على ذلك هو عدم شهرتها وبروز أسماها في سجلات المؤرخين، وقلة ذكر مساهمتها في إدارة تلك المناطق.

فمكة المكرمة، التي كانت قبيلة قريش سيدتها، لم يبرز لهذيل فيها نشاطاً يذكر. كذلك المدينة التي كان معظم سكانها من الأوس والخزرج ويهود بني قريظة وبني النضير.

والطائف، التي اشتهرت فيها قبيلة ثقيف، لم نجد لهذيل فيها نشاطاً يذكر أو شهرة تثير اهتمام المؤرخين سوى ما يروى هنا وهناك من وفود بعض رجال هذيل للبيع والشراء أو لقضاء أوقات اللهو وشرب الخمر ولعب الميسر على ما يرد في شعر بعض الهذليين وأخبارهم، الأمر الذي يثبت أن هذيلاً كانت متفرقة في الجبال المحيطة بتلك المناطق ولم تسكن في قلب المدن⁽¹⁾. هذيل هي بلاد جبال وشعاب وأودية وثنايا شأنها في ذلك شأن بلاد الحجاز.

قال الزمخشري: في كتابه "يورد من أسماء جبال بلاد هذيل أراو والأصفر وداعة والمراقبة والسطاع والمستقر وصراص وابنا طمر وهما جبالان بيطن نخلة وعسيب وكبكب ومكا والمناقب والوتير وبسوم"⁽²⁾، كما يذكر البكري منها آل فرس وهي جبال بالسراة، تضارع وحزن وغماً وهي قلة ثبير ومهور وعواهن وهي جبال بالسراة ونميس⁽³⁾.

ومن شعابهم التي ذكرها الزمخشري أباو وأبيم وخص الضهيانان وهما شعبان يجيئان من السراة وقبالة (عشر) وهو شعب لهذيل.

والأعوص والكفيان والمراح ثلاث شعاب تتناظر من داءه ونحا وهلال. يقول الزمخشري: أنها تجاور هذيلاً في أودية منها بشائم وحدته وحلية وسعيا ومنها قبيلة فهم⁽⁴⁾.

(1) معجم البلدان، الحموي، ج5، ص 62.

(2) الجبال والأمكنة والمياه، الزمخشري، ليدن، مطبعة بريل، 1855م، ص 2 : 161.

(3) معجم ما استعجم، البكري، ط3، تحقيق مصطفى السقاء، بيروت، دار عالم الكتب، 1403هـ، ص 312-92-443، ج3، ص 1011، ج6، 133 - 268، 42.

(4) الجبال والأمكنة والمياه، الزمخشري، ص 12 - 83 - 41.

ويقول عرام الأصبع : " فهؤلاء الغريان لسعد وبني مسروح، وهم الذين نشأ فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيها لهذيل شيء ولفهم أيضاً، ومنها خزاعة التي يقول عنها عرام بن الأصبع في حديثه عن خيف سلام : " وباديتها قليلة وهم جشم وخزاعة وهذيل.. " (1)، ومنها أسلم وغازرة(2)، ومنها سليم يقول البكري : "لأبيه موضع بين ديار هذيل وديار بني سليم على قرب من شابة.." (3). ويقول البكري عن شاية : (... وشابة بالشين معجمة والباء معجمة بواحدة في ديار هذيل) (4).

على هذا تكون سليم مجاورة لهذيل ومنها سعد بن بكر هذه القبائل التي ذكرناها على سبيل المثال، إذ ليس من اليسير الإلمام بكل القبائل التي تجاورت هذيلاً في الحجاز أو تهامة أو السراة، فهذه بلاد واسعة لا سبيل إلى استقصاء قبائلها المجاورة لهذيل، وما ذكرناه هنا من القبائل إنما هو لتأكيد أن هذيلاً كان لها اتصال وتداخل مع جيرانها لا محالة بحكم الجوار ومما يؤكد ما ذهبنا إليه من صعوبة استقصاء القبائل التي جاورت هذيلاً .

هذا ولم تكن الأسواق في بلاد العرب أسواقاً للبيع والشراء فحسب إنما كانت سوقاً من أسواق اللغة والكلام والبيان وعليه فقد كانت سبباً من أسباب الاتصال في اللغة بين هذيل والقبائل الأخرى، يقول الزبيدي : (وكما كان لمكة أسواق تجارية كانت لها كذلك أسواق أدبية كسوق عكاظ الذي كانت شهرته بمكان وكانت تعقد فيه المناظرات الشعرية والمساجلات الخطابية، وقد روت لنا كتب الأدب ما كان يجري بين حسان والخنساء في ذلك، وما كان من أمر النابغة الذبياني في التحكم بينهما) (5).

(1) أسماء جبال تهامة وسكانها، السلمي، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مصر: مطبعة عبد الرحمن أمين، 1373هـ، ج4، ص 1147.

(2) المرجع السابق، ص 35.

(3) المرجع السابق، ص 38.

(4) معجم ما استعجم، البكري، ج4، ص 1147.

(5) فقه اللغة العربية، الزبيدي، ط1، عمان، الأردن، دار الفرقان للنشر والتوزيع، 2004م، ص

ويقول الزمخشري: "عكاظ سوق وقيل عكاظ ماء لهم.. وقيل عكاظ ما بين نخلة والطائف إلى بلد يقال له العتق. كانت تقام هلال ذي القعدة فلا تزال قائمة عشرين يوماً"⁽¹⁾. وعن سوق مجنة يقول: "ومنها سوق مجنة بفتح الميم وكسرهما موضع قرب مكة وهو الذي عناه بلال رضي الله عنه بقوله متشوقاً إليه بعد الهجرة:
 وَهَلْ أَرِدْتُ يَوْمًا مِيَاهَ مَجْنَةَ
 وَهَلْ يَبْنُونَ لِي شَامَةً وَطَفِيلُ

كانت تقوم سوقهم فيه قرب موسم الحج ويحضرها كثير من قبائل العرب." ⁽²⁾.
 ويقول: "ومجنة ماء لبني الريل بتهامة. مجنة سوق من أسواقهم بالظهران إلى جبل يقال له الأصغر وهو بأسفل مكة على بريد منها، وكانت تقام عشرة أيام" ⁽³⁾.
 أما ذو المجاز فيقول عنه الزمخشري: (ذو المجاز سوق لهذيل في أرض كيبك" ⁽⁴⁾. يقول: (ذو المجاز من أصل كيبك وهو لهذيل. وذو المجاز خلف عرفة" ⁽⁵⁾.
 وقد كانت سوق أخرى أقل شهرة من غيرها وهي سوق حباشة قال عنها الألويسي: "ومنها سوق حباشة كانت في ديار بارق نحو قنونا. من مكة إلى جهة اليمن، ولم تكن من مواسم الحج، وإنما كانت تقام في شهر رجب." ⁽⁶⁾.

يقول ياقوت عن سوق حباشة: (وحباشة سوق من أسواق العرب في الجاهلية وهي سوق بتهامة...) ⁽⁷⁾. وإذا أمعنا النظر وجدنا أن سوق عكاظ قريبة من ديار هذيل لقربها من نخلة التي هي جزء من ديارهم. وكذلك سوق مجنة التي كانت قريبة من مكة وبالتالي قريبة من ديار هذيل القريبة من مكة أصلاً.
 هنالك جانب آخر من جوانب اتصال هذيل بجيرانها، وهو أيام هذيل وحروبها، وهذيل على ما يبدو كانت قبيلة إغارة وحروب وإن لم تكن لها حروب كبيرة

(1) الجبال والأمكنة والمياه، الزمخشري، 1855م، ص 107.
 (2) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، الألويسي، دبت، ج1، ص 166.
 (3) الجبال والأمكنة والمياه، الزمخشري، ص 38.
 (4) المرجع السابق، ص 62.
 (5) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، الألويسي، ج1، ص 192.
 (6) المرجع السابق، ج1، ص 267.
 (7) معجم البلدان، الحموي، 1989م، ج2، ص 210.

كأيام داحس والغبراء وحروب البسوس ونحوها فقد ذكر أن "يوم اللهيما" (1). كان بين عمرو بن الحارث بن تميم ن سعد بن هذيل، وبين بني عبد بن عدي بن الدئل بن بكر بن عبد مناة، ويبدو أن حروباً كانت بين هذيل وبين نفاثة بن عديل ابن الدئل، ومن ذلك ما رواه أبو الفرج من خبر أبي جندب أخي أبي خراش الهذلي حيث قال له بنو نفاثة : " أولم يكن بنو لحيان تقتلوننا فوالله من قرت دماؤنا وما زالت تغلي والله إنك للنأر المتيم" (2).

كما قال الأصفهاني في خبر أبي الأسود أخي أبي خراش الهذلي: "وأما أبو الأسود فقتلته فهم بياتاً تحت الليل" (3).

وقد ذكر البكري أن مالك بن عوف النصري كان قد أغار على بني معاوية من هذيل واشتاق حباً من لحيان فأدركتهم هذيل (بالبوابة) واستنقذوا ما كان بأيديهم (4)، كما ذكر البكري أن حرباً كانت بين خزاعة وهذيل في موضع يقال له (العجلان) فيه قتل أثيلة بن المتخل الهذلي (5).

ومما يدل على متعة هذيل ما أورده الديميري من قول ريان بن قسور للنبي صلى الله عليه وسلم : "قال : قلت يا رسول الله إنه دخل في قوم لهم منعة وهم جيراننا من هذيل)) (6)، كما يدل قول الزمخشري : " المرقبية جبل كان رُقباء هذيل فيه بين بسوم والضهياتين" (7). على كثرة حروب هذيل مع جيرانهم إلى الحد الذي حملهم على جبل المرقبية بصورة دائمة حتى عرف بذلك الاسم، وهذا بالطبع لا ينفي تمتعهم بقدر من الأمن وفرته لهم حصونهم المتمثلة في جبالهم العالية وشعابها الباذخة ومن ذلك ما أورده الألويسي على لسان بعض النساء تصف زوجها ذلك : " زوجي كليل

(1) العقد الفريد، ابن عبد ربه، ط3، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1999م، ج5، ص 209.

(2) الأغاني، أبو فرج الأصفهاني، تحقيق عمير جابر على مهنا، بيروت، لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر، 2008م، ج1، ص 228.

(3) المعجم السابق، ج1، ص 266.

(4) معجم ما استعجم، البكري، ج1، ص 284.

(5) المعجم السابق، ج3، ص 922.

(6) حياة الحيوان الكبرى، الديميري، ط2، تحقيق أحمد حسن، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003م، ص 434.

(7) الجبال والأمكنة والمياه، الزمخشري، 1855م، ص 71.

تهامة لا حرّ ولا غر ولا مخافة والغيث غمامة. وقال ابن الأنباري أرادت بوقلها لا مخافة أي أن أهل تهامة لا يخافون لتحصنهم بجبالهم" (1).

هذا وقد كان للحج وأماكن العبادة أثر كذلك في التواصل اللغوي بين هذيل وقبائل العرب الأخرى من جيرانهم وغيرهم، فقد كان موسم الحج يجمع القبائل العربية بمختلف لغاتها، كما كانت هنالك بعض الأصنام وأماكن أخرى للعبادة مجتمعة للقبائل دون موسم معين، وكثير منها كان قريباً من ديار هذيل، فالحج بمكة القريبة جداً من ديارهم، بل إن بعضهم كان بمكة ذاتها.

والحج إلى مكة قديم، يقول تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِنَا مِّنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) (2)، ويقول تعالى: " وَأَنَّ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ " (3).

هذا ولم تكن الكعبة المشرفة مكان للحج الوحيد عند العرب بعد أن فارقوا دين إسماعيل عليه السلام، فقد كانت لهم أصنام كثيرة يحجون إليها، يقول الألوسي: (وكان أول من اتخذ الأصنام من ولد إسماعيل وغيرهم هذيل بن مدركة اتخذوا سواعاً فكان لهم برهاط من أرض ينبع وكان سدنته بني لحيان يعبد من يليهم من مضر) (4).

ويقول الألوسي عن الأصنام: (وكان أقدمها مناة، وسمت العرب عبده مناة وزيد مناة، وكان منصوباً بساحل البحر بناحية المنشل من قدير بين مكة والمدينة، وكانت العرب تعظمه وتذبح حوله، وكان أكثر الناس إعظاماً له الأوس والخزرج وكانت هذيل وخزاعة وجميع العرب تعظمه) (5).

يقول الألوسي عن اللات والغزى: (ثم اتخذوا اللات بالطائف وكانت صخرة مربعة، وكان عندها يهودي يلبث عندها السوق، وكان سدنتها من ثقيف وكانت

(1) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، الألوسي، ج2، ص 38.

(2) سورة إبراهيم، الآية: (37).

(3) سورة الحج، الآية: (27).

(4) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، الألوسي، ج1، ص 267.

(5) المرجع السابق، ص 202.

قريش وسائر العرب تعظمها ثم اتخذوا العزى، اتخذها ظالم بني أسعد وكانت بواد من نخلة الشامية عن يمين المصعد إلى العراق من مكة فوق ذات عرق بتسعة أميال وحمّت له قريش شعباً من وادي حُرّاض يُقال له سُقام يضاؤون به حرم الكعبة، وكان لهم منحَر ينحرون فيه هداياهم يُقال له الغيغب، وكانت قريش تخصها بالأعظام وكانت سدنة العزى من بني شيبان من بني سليم⁽¹⁾، فالعزى وإن لم يشر الألوّسي إلى اعظام لها كائنة في ديار هذيل لكونها بواد من نخلة الشامية، وعليه من زار العزى فقد زار جزءاً من ديار هذيل.

كذلك يقول الزمخشري: (نخلة اليمانية ونخلة الشامية واديان لهذيل في طريق مكة على ليلتين)⁽²⁾. ويقول: (المناقب جبل معترض فيه ثنايا وطرق إلى اليمن وإلى اليمامة وإلى أعالي نجد وإلى الطائف)⁽³⁾. وقد ذكر كثرة طرقه وثناياه كانت سبباً في هذه التسمية⁽⁴⁾.

نخلص من كل ما سبق إلى حقيقة جلية، وهي أن هذيلاً كانت متصلة الأسباب بعدد غير قليل من القبائل العربية، إما جواراً في الحجاز وتهامة والسراة كما هو الشأن بالنسبة لقريش وثقيف، أو حرباً كما هو الشأن بين هذيل وسليم، أو تجارة على النحو الذي سبق وصفه، أو حجاً للكعبة المشرفة وغيرها من أماكن العبادة عندهم والحج والأوثان، بالإضافة إلى كون بلادهم معبراً وملتقى ومفترق طرق لهجات عديدة في الحجاز وتهامة وكل ما سبق ذكره هنا ينبغي أن تكون لغة هذيل قد أصاب أصحابها الإنعزال أو الانغلاق.

(1) المرجع السابق، ص 203.

(2) الجبال والأمكنة والمياه، الزمخشري، ص 128.

(3) الجبال والمياه والأمكنة، الزمخشري، ص 149.

(4) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، الألوّسي، ج1، ص 191 - 195.

المبحث الثالث : الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لهذيل:

1/ حياتهم الاجتماعية:

على ضوء ما جمعناه لهذيل حقيقة تلك الحالة التي كانت عليها هذه القبيلة، فهذيل كانت إحدى قبائل العرب، ولم يكن يميزها عنها إلا أمور طبعت المجتمع الهذلي بطابع فريد، هذا ما سنأخذه بالتفصيل حياة العرب ونظامهم الاجتماعي. النظام الاجتماعي للعرب قوامه القبيلة، هذا ما يتفق عليه الجميع، كما يتفقون على أن أساس هذا النظام قرابة أو دم، لأن الأسرة من الخلية الأولى، وهي ما يسميها رجال الاجتماع بالنمرة، ويقولون عنها إنها (الطائفة الاجتماعية التي لا تحتوي والتي لم تحتو قط على طائفة أقل تركيباً منها، ولكنها تتصل مباشرة إلى أفراد يوجدون جنباً إلى جنب)⁽¹⁾، وفي حياتهم العامة تتضمن على طاعة أب واحد هو صاحب الكلمة. ولكن قد يكون من الأسرة أيضاً ناس لا تربطهم قرابة أو دم وهؤلاء هم الرقيق، والأحلاف والجيران، وتجري عليهم أحكام رب الأسرة. ومن الطبيعي لحاجات اقتصادية أو مادية أن تتجاوز أسرة وأسرته بها قرابة، وتجتمع واحدة بأخرى فتتسع الدائرة، ويكبر الأفق، ويكون لهم مع ذلك مقومات ذاتية تدفعهم في اتجاه واحد، ويخضعون لرئيس واحد ويكونون ما يسمى العشيرة وأصبحت هذه الجسر الذي عبرته العرب لتكوين القبيلة كأساس لحياتهم الاجتماعية. وإذا حاولنا أن ننظر إلى ما وراء ذلك كله نجد أن هناك ما هو أقوى من القرابة والدم في نظري اتفاق على المصلحة في العيش، فقد كان عليهم أن يتضامنوا لحراسة مراعيهم، ويتعاونوا على حماية ما يملكون من إبل وماشية. ونظرة في نظام القبيلة تكشف عن شيئين تقوم حياة العرب بهما وعليهما، الخضوع المطلق لشيخ القبيلة أو رئيسها والتحرر المطلق في صلاتها الخارجية. وهاتان الظاهرتان تفسران كل ما كان يحدث في المجتمع العربي.

(1) قواعد المنهج في علم الاجتماع، أميل دور كايم، ترجمة أ.د. محمود قاسم والسيد محمد بدوي، دار المعرفة الجامعية، ص 140.

نصرة أبن القبيلة أمر طبيعي واجب طالما كان يضمن البقاء لها، فلم يكن ثمة عدالة كما نفهمها نحن اليوم، كانت هذه العدالة تحقيق الحاجة وقضاء المصلحة، وكان هذا يجعل القبيلة لا تؤمن إلا بنفسها، وتحرص على بقائها بأي سبيل.

هذيل من القبائل العربية تدين بما يدين به غيرها من عادات وتقاليد، ومن تلك العادات ما كانت نلتزم به القبيلة، وجاء الإسلام فأبقى عليها كالكرم والشجاعة ومساعدة الجار واحترام حقوقه، والصدق والأمانة ومنها ما حاربها وحاول القضاء عليها كشرب الخمر واستباحة النساء والثأر الذي جعل الإسلام حقه للسلطة الحاكمة وليس للفرد.

ويظهر اعتزاز هذيل بمثلها في شعرها واضحاً، فهم يفتخرون بشجاعتهم وإقدامهم، وبأنهم لا يهابون الموت ولا يرهبون، وبأن سيوفهم دوماً على استعداد للقتال.

يقول حذيفة بن أنس :

وَكَتْنَا بِنِي حَرْبٍ تَرَبَّتْ صِغَارُنَا إِذَا هِيَ تُمَرِّى بِالْأَسِنَّةِ عَرَّتِ
وَنَحْمِلُ فِي الْآبَاطِ بِيضاً صَوَارِمَا إِذَا هِيَ صَابَتْ بِالطَّوَائِفِ تَرَّتِ
وَوَدَّ هَرَبَتْ مِنَّا مَخَافَةً شَرَّنَا جَذِيَعَةً مِنْ ذَاتِ الشُّبَاكِ فَمَرَّتِ
وَهَلْ نَحْنُ إِلَّا أَهْلُ دَارٍ مُقِيمَةٍ بِنَعْمَانَ مِنْ عَادَتِ مِنَ النَّاسِ ضَرَّتِ (1)

كذلك كان الفخر بالأهل والأصل أمراً سائداً في المجتمع الجاهلي، قال عمرو

بن هميل:

حَزِينَةٌ عَمْنَا وَأَبِي هُذَيْلٍ وَكُلُّهُمْ إِلَى عِزِّ وَلِيَّتِ
أَبِي لِي صَارِحٌ كَالسَّيْلِ نَهْدٌ وَعِزٌّ لَا يَزُولُ أَنَا مَبِيَّتِ (2)

(1) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج2، ص 550.

(2) المرجع السابق، ص 822.

فالشاعر يرفع قبيلته على كل من حولها ويجعل حياتها كلها عزاً وسؤدداً،
فشخصية الشاعر قد اندمجت في قبيلته حتى كأنه لم يشعر لنفسه بوجود خاص،
فهو يفتخر بأجداده ويعد ذلك مكرمة له.

على أن نزعة الفخر الفردية وجدت أيضاً، فوجدنا شعراء افتخروا بشجاعتهم
أو كرمهم أو تحليهم بالمثل العليا، فهذا أبو ذؤيب يفتخر بشجاعة ابن عمه نسيبه
ويقول على لسانه :

(1) **وَلَكِنْ خَيْرٌ وَأَقْرَبُ بِلَائِي إِذَا مَا أَسَاءَلْتُ عَنِّي الشُّعْبُ**

وقال أيضاً :

(2) **ضُرُوبٌ لَهَا مَاتِ الرَّجَالِ بِسَيْفِهِ إِذَا حَنَّ نَبْعٌ يَنْبَعُ يَنْبَعُهُمْ وَشَرِيحٌ**

يقول : إذا ترامى الناس بالقسي، ضرب بسيفه وكان له النصر.

وقال أيضاً :

(3) **وَإِنَّكَ إِنْ تَنَازَلْتَنِي تَنَازَلٌ فَلَا تَغْرُرْكَ بِالْمَوْتِ الْكَذُوبُ**

ولصبر قرين للشجاعة، فالشجاع الذي يقدم أولاده وكل ما يملك إلى ساحة الحرب
وهو موقن بالموت، لا يجزع حين يفقد الأحبة. هو يتألم لفقدهم. ولكنه يفتخر بصبره على
مواجهة المصائب، فهو كالصخرة التي تقرعها الأحداث كل يوم.

والكرم والمبالغة من الصفات التي التزم بها العربي وعشقها، وهم يفتخرون
دوماً بأن بيوتهم مفتوحة للضيوف وإن نارهم مشتعلة ليهتدي إليهم التائهون والضالون
والجائعون.

قال الشاعر :

(3) المرجع السابق، ج1، ص 111.

بلائي : صنيعي، شعوب : جمع شعب وهي القبائل

(4) المرجع السابق، ج1، ص 138.

التبريح : خشبة تشق. فيعمل منها قوسان

(5) المرجع السابق، ج1، ص 110.

تنازلني : تقاتلني. الكذوب : أراد نفسه.

ومستتبح يخشى القواء ودونه
من الليل باب ظلمة وسترها
رعت له ناري فمأ أهدى بها
زجرت كلابي أن يهد عقرها
لا تسأيني وأسألي عن خدي
إذا رد عافى القدر من يستعيرها
رى أن قنن لا تزال كأذنا
لذي الفررة المقرور أم يزرها
مبرزة لا يجعل السر نونها
إذا أحمد النيران لاح برها
إلا الشول رحت ثم لم تفد لحا
بألذ ما ذاق السنان عقيرها⁽¹⁾

قال ابو ذؤيب:

مطاعيم للضيف حين الشتا وشم الأنوف كثير و الفجر⁽²⁾

قال معقل بن خويلد:

جواداً إذا ما الناس قل جوادهم وسيفاً إذا ما صارخ القوم أفرماً⁽¹⁾

وحماية الجار من الأمور التي اهتم بها العرب وبخاصة سكان البوادي
والفقار. ويبدو أن الحياة غير الآمنة المهدة دوماً جعلت روابط الجوار متينة.
قد تختلف القبيلة مع جارتها وقد يتطور الخلاف إلى سفك الدماء، ولكن
القبيلة دوماً تقف مع جارتها أما أي غزو خارجي. وهي تبذل ما تستطيع في سبيل

(1) المفضليات، المفضل الضبي، تحقيق محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط 2003م، ص 347.

(1) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج1، ص 118
الفجر: المعروف، يقال للكثير المعروف: (ما أكثر فجره).

(1) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج1، ص 401
السف: صروب من الحيات خبيث.

نصرة جيرانها ومساعدتها ورد أسراهم، وقد يكلفها ذلك كثيراً، وربما أدى إلى قيامها بحرب ضروس تدفع هي ثمنها، كل ذلك ترد أسيراً لجيرانها عجزت قبيلته عن فك أسره.

قال أبو جندب :

فَلَا تَحْسِبَنَّ جَارِي لَدَى ظِلِّ مَرْخَةٍ وَلَا تَحْسِبْنَهُ فَقَعٌ قَاعٍ بِقَرْقَرٍ (2)
وَلِكُنِّي جَرُّ النَّضَامِنِ وَرَائِهِ يُخَفِّرُنِي سَبِي إِذَا لَمْ أَحْفَرِ

شرب الخمرة من العادات المعروفة في الجاهلية، وقد ذكرها الهذليون بشعرهم ووصفوا لونها وطعمها وتأثيرها وإن لم يطلبوا ذلك، ولا نتوقع أن نجد في شعرهم وصفاً لمجالسها لأنهم أعراب غير مستقرين، ومعظم الذين وصفوا مجالس الخمرة في الشعر الجاهلي هم من شعراء الحاضرة كالأعشى الذي أجاد وصف الخمرة إجابة لفتت إليه أنظار القدماء فقالوا: (أشعر الجاهلين الأعشى إذا شرب). ووصفه لها يتناول مجالسها، وما يصاحب شربها من استماع للغناء ووصف للإماء ولباسهن، كما يصف أوانيتها وألوانها وما تفعله بعقول شاربيها.

ومن العادات الجاهلية أيضاً وأد البنات، وقد ذكر المبرد أن هذيلاً من القبائل التي كانت تند بناتها(1).

وقد ذكر القرآن الكريم تلك العادة في قوله تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ سَوْداً وَهُوَ كَظِيمٌ) (2). وقال تعالى أيضاً: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ سَوْداً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُسْكُهُ عَطَىٰ هُوَ أَمْ يُسْئَلُ فِي الدَّرَابِ إِلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (3).

(2) المرجع السابق، ج1، 358.

المرخة: شجرة صغيرة لا يمتنع في لاذبها

القعق: سرب من الكمأة ردي

قرقر: القرص ما استوى من الأرض

يخفروني: يكون لي خفيراً

(1) الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: زكي مبارك وأحمد محمد شاكر، ط1،

1937م، ص 425.

(2) سورة الزخرف، الآية: (17).

(2) سورة النحل، الآية: (58 - 59).

والآيات صريحة في إثبات وجود تلك العادة الذميمة بين عرب الجزيرة الذين نزل القرآن هادياً لهم واختلف في أسباب تلك العادة. فمن العلماء من قال إن دافعها اقتصادي، بدليل قوله تعالى: (وَلَا تَقْدُ لُوا أَوْلَانَكُمْ حَشِيَّةً إِهْلَاقٍ تَحْنُ نَزُوقُهُمْ مَّ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَوْلَهُمْ مَّ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً)⁽⁴⁾.

ويبدو أن المرأة في مجتمع هذيل كانت تتمتع بقسط من الحرية لم تحظ به عند غيرها من القبائل، وتحظى كذلك بقدر من اهتمام الرجل وتدلهه بها، وعلى ذلك شواهد كثيرة من شعر الهذليين وأخبارهم.

موقف الهذليين من المرأة كشريك حياة وحببية فيختلف من امرأة إلى أخرى. فقد تسمو العاطفة بالشاعر إلى حد الامتناع عن مصارحة المحبوبة بما يكنه لها من ود، فهو يحبها على البعد، وحببه لها يجعله حريصاً على حياتها من نفسه، فيتظاهر إذا رآها بعكس ما يبطن لها، وهو يفعل ذلك حرصاً على كرامتها وخوفاً من أن يتناولها أحد بالذم في مجتمع صغير تسوده الوشاية ويتهاجى فيه الناس بالأعراض. قال أبو ذؤيب :

مَالِي أَحْنُ إِذَا جِمَالِكِ قُرَّبْتُ وَأَصْدُ عَنْكَ وَأَنْتِ مِنِّي أَقْرَبُ (1)

ومن أشهر معتقداتهم التي يشاركون فيها عرب الجاهلية زجر الطير والنشائم بالغراب. عرض أبو ذؤيب لذلك في معرض روايته عن وفاة الرسول (ص) كما عرض له في قصيدة أخرى يقول فيها:

أَبِ الصَّرْمِ مِنْ أَسْمَاءَ حَدَّتْكَ الَّذِي جَرَى بَيْنَنَا يَوْمَ اسْتَقَلَّتْ رِكَابُهَا (2)

زَجَرْتُ لَهَا طَيْرَ الشَّمَالِ فَإِنْ تَكُنْ هُوَاكَ الَّذِي تَهْوَى يُصِيبُكَ اجْتِنَابُهَا (3)

تلك بعض ملامح حياتهم الاجتماعية.

(4) سورة الإسراء، الآية: (31).

(1) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج1، ص 205.

نسبت القصيدة إلى ابن أبي دياكل

(2) المرجع السابق، ج1، ص 42.

(3) المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، دار الساقى، ط1، 2001م، ج6، ص 790

زجر الطير هو أن يرمي الرجل الطير بحصاة، ويصيح فإن ولاه في طيرانه ميامنه تفاعل به وإن ولاه مياسره تطير.

اختر: أحقق

2/ حياتهم الاقتصادية (سعيهم لكسب العيش):

رأينا سابقاً أن هذيلاً كانت تسكن المناطق الجبلية من الحجاز بين مكة والمدينة والطائف، أما موقع مكة فقد جعل أهلها يهتمون بالتجارة ويمارسونها، فسنت قريش رحلتي الشتاء والصيف.

أما المدينة فقد اشتهرت بالزراعة، كذلك الطائف. ولو تساءلنا : هل مارست هذيل التجارة والزراعة لوجدنا أن المصادر لا تسعفنا بإجابة شافية لهذا السؤال. ويبدو لي أن هذيلاً لو اشتغلت بالتجارة في مكة لأثرت وذاع صيتها وصار نصيبها من اهتمام المؤرخين أكثر مما وجدنا، ولبرز أثرها خلداهم التاريخ وتحدث عن مظاهر ترفهم. والواقع أننا لا نظفر بأسماء شخصيات من هذيل اشتغلت بالتجارة، بل ليست هناك أية إشارة إلى ممارسة هذيل لتلك المهنة.

أما الاشتغال بالحرف والصناعات فقد كان العرب عموماً يأفون منها، فلا يليق بالعربي الشريف الحر أن يكون صانعاً، لأن الصناعة من حرف العبيد والخدم والأعاجم، فما بالك بهذيل وهم من الأعراب الذين يستقروا في المدن الكبيرة.

إذن فمن المستبعد أن تكون هذيل قد اشتغلت بالصناعة، ومن واقع ما لدينا من نصوص نستطيع أن نقرر أن حياة هذيل الاقتصادية وسعيها في سبيل العيش كانت تقوم على الرعي وتربية الحيوانات واشتتار العسل أحياناً، وعلى النهب والسلب أحياناً أخرى. ويظهر من احتفالهم بالمطر مدى أهميته في حياتهم شأن كل العرب في البداية. فهذا أبو ذؤيب الهذلي يترقب المطر وينتظر قدومه انتظار المحب عودة الحبيب، فإذا ما أقبل جلس يراقبه ويصفه بدقة تتم عن الاهتمام إذ يقول⁽¹⁾:

أَرَقْتُ لَهُ ذَاتَ الْمِشَاءِ كَأَنَّهُ نَخَارِيقُ يُدْعَى تَحْتَهُنَّ خَرِيجُ
تُكْرِكِرُهُ بَجْدِيَّةٍ وَتَمْدُهُ مُسْفَسَفَةٌ فَوْقَ التُّرَابِ مَعُوجُ
لِكُلِّ مَسِيلٍ مِنْ تِهَامَةَ بَعْدَمَا تَقَطَّعَ أَقْرَانُ السَّحَابِ عَجِيجُ

ثم يقول:

فَذَلِكَ سُقِيَا أُمَّ عَمْرٍو وَإِنِّي بِمَا بَدَلْتُ مِنْ سَيْبِهَا لَبَهِيجُ (2)

(1) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج1، ص 131.

إن شاعرنا لم ينم تلك الليلة احتفالاً بقدوم المطر، ولم يكن احتفاله به بالسهر فحسب، وإنما كان يراقبه كما يراقب المحبوب عودة الحبيب، وهو يدعو لأم عمرو محبوبته بذلك الغيث وكانت تلك الدعوة أغلى هدية يمكن تقديمها لها. وقال أيضاً :

أَمِنْكَ بَرَقُ أَيْتِ اللَّيْلِ أَرْقُبُهُ كَأَنَّهُ فِي عِرَاضِ السَّمَاءِ مِصْبَاحٌ (1)
يَجْسُرُ رَعْدًا كَهَدْرِ الْفَحْلِ تَتَّبِعُهُ أَدْمٌ تَمَطَّفٌ حَوْلَ الْفَحْلِ ضَحْضَاحٌ

إنه يراقب ذلك البرق الذي يشع بنوره على الصحراء المظلمة وكأنه المصابيح المشتعلة، ويستمتع بإصغاء إلى الرعد الذي شبهه بهدير فحل تتبعه النوق الأدم محيطة به.

ويعد الصيد مصدراً مهماً من مصادر اقتصاديات هذيل، يدلنا على ذلك اهتمام شعرائها به ووصفهم لعملية الصيد والاحتفال على الحيوان وتوجيه السهام له وقتله.

فهز صخر الغي يصف احتفال الصائد في الحصول على الوعل فيقول:

أَحَاطَ بِهِ حَتَّى رَمَاهُ وَقَدْ دَنَا بِأَسْمَرٍ مَفْتُوقٍ مِنَ النَّبْلِ صَائِبِ
فَنَادَى أَخَاهُ نَمَّ طَارَ بِشَفْرَةٍ إِلَيْهِ أَجْتَزَارُ الْقَمْفَعِيِّ الْمُنَاهِبِ
وَلِلَّهِ فَتَخَاءُ الْجِنَاحَيْنِ لِقْوَةٌ تَوْسُدُ فَرَحِيهَا لُحُومَ الْأَرَانِبِ
كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ فِي جَوْفِ وَكْرِمَا نَوَى الْقَسْبِ يُلْقَى عِنْدَ بِنُضِّ الْمَادِبِ (1)

كانت حياة هذيل تعتمد على الرعي والصيد، لذا انتقلت من مكان إلى آخر، ويبدو أن عدم استقرارها هذا هو الذي جعلها تدوب في المجتمع الإسلامي،

(2) المرجع السابق، 132.

عجيج: صوت الماء - المخاريق: لعبة يلعب بها الصبيان
خريج: لعبة

(1) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج1، : 167.

ضحضاح: كثير

(1) شرح أشعار الهذليين، السكري، ج1، : 250 - 253.

مفتوق: محدد، صائب: سريع، شفرة: سكين، الغعفقي: الخفيف
المناصب: المبارد، فتخاء: مرتخية، الجناح، لقوة: مائلة الرأس.

كذلك اعتمدت على الغزو والنهب والسلب وهو أمر طبيعي لا تتفرد به هذيل وحدها، إنما تشاركها فيه معظم القبائل العربية الفقيرة.

ولقد لخص الأستاذ أحمد أمين حياة الأعراب الاقتصادية، حيث قال: (فأما البدو فكانوا ولايزالون يحتقرون الصناعة والزراعة والتجارة والملاحة وإنما يعيشون على ما تنتجه ماشيتهم، يأكلون لحومها بعد علاج بسيط ويشربون ألبانها ويلبسون أصوافها، ويتخذون منها مساكنهم . وإذا اشتد بهم الضيق أكلوا الضب والبيروع. وهم يعتمدون في تغذية ماشيتهم على الطبيعة، يخرجون بها في مواسم المطر إلى منابت الكأ لترعى، فإذا انتهى الموسم عادوا إلى مواطنهم ينتظرون أن يحول الحول وينزل الغيث، وإذا احتاجوا إلى غير ما تنتجه ماشيتهم تعاملوا عن طريق البديل، فكانوا يستبدلون بالماشية ونتاجها ما يتطلبون من ثمر ولباس)⁽²⁾.

3/ حياتهم السياسية:

هذيل من القبائل البدوية التي لم تعرف الاستقرار، فهي دائمة الانتقال من مكان إلى آخر طلباً للماء والكأ، وليس لدينا معلومات وافية عن الذين تولوا رئاسة هذيل عدا ما ذكره الطبري من أبرهة عندما توجه لهدم البيت كانت هذيل من القبائل التي تصدت له، ولما عجزوا عن مواجهته بعثوا وفداً للتفاهم معه، وكان رئيس الوفد عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم ورأس قبيلة قريش وسادت البيت وكان معه سيد بني كنانة وخويلد بن وائل الهذلي سيد هذيل. وقد عرض الوفد على أبرهة ثلاث أموال تهامة على أن يرجع ولا يهدم البيت فأبى⁽¹⁾، وليست لدينا معلومات وافية عن خويلد هذا، إلا أنه كان رئيس قبيلة هذيل في ذلك الوقت.

واختتم هذا الحديث من حياة هذيل بما قاله جوستاف لوبوت عن حياة الأعراب عامة ونظرتهم إلى الغزو والنهب، والسلب، وهي نظرة تختلف عن نظرة الإنسان المتحضر لها، إذ يقول: (ويعتذر الأعراب عن النهب بأنهم محرومون لفقد بلادهم طيب العيش ووفرة الغلات والكأ مما لم تعرفه أمة أخرى، وبأنهم يزيلون هذا

(2) فجر الإسلام، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة: ط6، 1959م، ص 36.

(1) تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ار المعارف، 1969م، ج2، ص 222.

الحييف المقدر بأسنة رماحهم معتقدين أن من الحلال دهم القوافل وسلب ما بأيديها
تعويضاً مما لم تقدر أن تجود عليهم به أراضيهم القاحلة، وبأنهم يعدون قطع السابلة
وسلب ما بأيدي الناس رباً من حقوق الفتح كتدويخ مدينة أو ولاية وذلك لعدم تفريقهم
بين الحرب والكموت⁽²⁾.

⁽²⁾ حضارة العرب، غوستاف لوبوت، دار العالم العربي، 2011م، ص 72 – 73.